

الفصل السادس

طالب الدكتوراه بجامعة باريس

« غرق في الحياة الباريسية وسقط في درجة الدكتوراه في القانون .

« عندما تشاءم من المصباح المكسور .

« استقبله أهله بعد العودة قائلين : « ياخييتنا ياخييتنا » .

« كتب عودة الروح باللغة الفرنسية ، وكاد يلطشها منه كاتب فرنسى .

« كان يريد أن يصبح دكتوراً في الأدب لا في القانون .

* * *

يوم الرحيل

تحدث عن رحلته الأولى إلى باريس في كتاب « رحلة بين عصرين » فقال :

- ذات صيف في مطلع العشرينات من هذا القرن ، في شهر يولييه ، فيما أذكر- يقصدي عام ١٩٢٥ وضعت قدمي على سلم باخرة تذهب بي إلى فرنسا . لم تكن الطائرات قد استخدمت في السفر . ولم أكن قد ركبت البحر قط . كانت الباخرة تسمى « الجنرال مترنجير » وهو جنرال فرنسي لم يشترك في الحرب العالمية الأولى لأنه ولد عام ١٨٤٢ ومات ١٩١٤ وربما حضرها ومات عند أول طلاقة . وقد علمت أنهم أعدموها أو فكوا أجزاءها بعد تلك الرحلة .

وفي « سجن العمر » يصف يوم الرحيل ، ويقول :

- في يوم السفر عانقت والدتي وجلتي ودموعها تنهمر . وذهبت مع والدي إلى الميناء ، وصعدت إلى الباخرة ، ووقفت على ظهرها أتطلع إلى والدي على الرصيف ، وهو واقف تحت شمسيتيه البيضاء ، يلوح لي بيده ثم بمنديله ، والباخرة تتحرك . كان منظره منظر الأب الرزين وهو يكم شعوره تحت قناع وداع هادئ ، مما أسال دمعتي على الرغم مني . وابتعدت مصر ، وانجهت أنا نحو المصير المجهول .

ويستكمل حديثه ، ويقول :

- ركبت بالبداية في الدرجة الثانية ، لأنه لم يكن بها درجة ثالثة ،

وكانت الأيام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة . وأمامنا خمسة أيام طوال لاندري كيف نقضيها . وعلمنى أحد رفاق السفر لعبة « الدومينو » ، لقتل الوقت .

وفى باريس أقام فى الحى اللاتينى فى فندق « فرنسا الشرق » فى حجرة إيجارها الشهرى أربعائة فرانك أى ما يوازى أربعة جنيهات فى تلك الأيام بينما كان ما يصله من أهله شهريا عشرة جنيهات .

الفن والقانون

وهناك التحق بكلية الحقوق بجامعة باريس ، للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون .

وبالرغم من أن والده رجل القضاء قد أوفده إلى باريس ليعده عن الجو المسرحى فى مصر ، ليدرس القانون ، فإن الجو الفنى الأوربى ، جعله يفرق فيه إلى الأذنين ، فدهم فى نفسه الميل الطبيعى للفن ، وفتح أمامه طرقاً فنيةً جديدة ، لم تكن مألوفة فى مصر ، فأخذ يقرأ كل ما يتعلق بفنون الأدب والمسرح والموسيقى والفن التشكيلى ، ويتردد على المسارح والمتاحف وحفلات الكونسيربات على نحو ما جاء فى كتابه « عصفور من الشرق » و « زهرة العمر » . روى لى صديقه وزميل دراسته فى باريس الدكتور مصطفى القللى عميد كلية الحقوق السابق بعض ذكرياته معه فى هذه الفترة ، فقال :

- إننى كنت أتم حينذاك أنا وبعض الزملاء المصريين فى إحدى ضواحي باريس فى شبه عزلة عن المدينة ، لأننا كنا لانذهب إليها إلا نادرا لمشاهدة ما

يجرى فيها . فكان توفيق الحكيم الذى كان يقيم فيها ، بأتى لزيارتنا فى نهاية كل أسبوع ، ويوفر علينا عشاء الذهاب إلى المدينة ، لأنه كان يقص علينا أخبارها ، خصوصا أخبار المسارح والمعارض والموسيقى ، التى كان يقبل عليها بنهم شديد . وبرغم ما اشتهر عنه من مجل شديد ، فإنه كان ينفق بسخاء على شراء الكتب وحضور حفلات التمثيل والموسيقى .

ذكر لى بعض أصدقائنا فى باريس أيضا ، أنه بلغ من شدة شغفه بالموسيقى السيمفونية ، أنه كان يتردد على بعض النوادى التى كان يوجد فيها جهاز الاسطوانات الأوتوماتيكي المعروف باسم « جوك بوكس » الذى تستمع فيه إلى أى اسطوانة تطلبها بقطعة من ذات المارك ، فكان يضحى بآخر مارك فى جيبه ليستمع إلى موسيقى بيتهوفن وموزار مرات ومرات .

إذن فقد اختار طريق الأدب والفن والفكر ، الذى نأى به عن طريق القانون . لكنه مضى على كره منه فى الدراسة والتحضير لرسالة الدكتوراه ثلاث سنوات دون أن يحرز أى تقدم .

كتب إلى صديقه الفرنسى أندريه فى إحدى رسائله فى كتاب « زهرة العمر » يقول :

- إنى الآن جادّ فى الاستعداد للامتحان فى أول مارس ، وهى آخر فرصة لى ، فإذا ضاعت فلانى أقطع الأمل نهائيا فى نوال الدكتوراه ، ذلك أن البرنامج بعد ذلك يتغير ، وبهذا يذهب هباء كل ما قدمت فيما مضى ، ثم إنى لن أستطيع التقدم إلا مرة أخرى بعد مرور عام على الأقل ، بالبرنامج الجديد . فأول مارس كما ترى هو التاريخ الفاصل فى أمر مستقبلى الدراسى للقانون ، وفشل فيه سوف يكون صدمة كافية أن تقصينى إلى الأبد عن طريق الحقوق . فهذا الامتحان هو

حدث هام في حياتي ، ولا أريد أن أتهاون فيه حتى لاتلقى التبعة على وعلى إرادتي ، فأنا أجهد نفسي فوق الطاقة لأضع التبعة على رأس القدر ، فاذا أراد هو أن يصدمني ليخرجني من سجن القانون إلى فضاء - أى فضاء - فتلك إذن إرادته هو لا إرادتي .

وفي رسالة أخرى ، كتب يقول :

- لم يعد لأياي مذاق ، فهي كالماء القراح ، أجرعه على غير ظمأ ، والمستقبل أمامي محوط بالضباب ، يخيل لي أني هويت قبل الأوان ، كالثمرة التي تسقط من الفرع قبل النضوج .

ثم يعلق على برقية تلقاها من أبيه قبل موعد امتحان الدكتوراه ، ويقول :
- أمامي برقية من أبي المسكين تقول : « أبرق لنا في حالة نجاحك » .
وكلمة النجاح غريبة على أذني الآن . أنا أستطيع أن أنجح في شيء ؟ إن اسمي كما تعلم مقيد منذ زمن بجدول المحامين في بلادى ، إنى في عرف القانون محام .

لقد كانت فجيحة لأبي المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أنى أنسى صفى كمحام وأنحشر في زمرة الممثلين ، أولئك الذين يسمونهم عندنا « الشخصيات » ولقد خشى والدى المتفجع أن يحرقني التيار عن حياة القضاء التي عاشها بشرف ، فأشار عليه المخلصون أن يقصيني عن مصر فترة من الزمان . فأرسلني كما ترى إلى هنا لعل أسلو الفن ، وأنصرف إلى ما يتمناه من حياة قانونية محترمة .
فماذا أنا قائل له الآن ؟ وماذا أرد على برقيته ؟

رأيتك دائما ذو قيمة كبرى عندي ، فهو صادر عن منطق طالما أنكر سلطان الخيال . أما أنا فقد أنكرته ، أو على الأقل سائر في طريق إنكاره والإيمان

بالواقع . الدليل على ذلك . أنى أرغم نفسى الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه فى القانون ، إرضاء لأهلى ، لاشىء يعوقنى عن النجاح غير طبيعى التى خلقت للضياغ فى الفضاء ، لا للوقوع فى قيود الدكتوراه وحدود المعارف الجامعية . نفسى قد خلقت لتقرأ ماتريد وقتما تريد ، لتحيط علما بكل شىء وتسعى إلى تأمل كل شىء ، وتستبقى فى الذاكرة ما تشاء وتنسى ما تشاء . أما تتبع دراسة منتظمة لجزء معين بالذات من العلوم يستذكر استذاكارا ليستفرغ بعد ذلك استفرغا بين يدى ممتحنين ومخلفين .. هنا كل المشكل بأصديق أندريه .

السقوط فى الدكتوراه

وكان السقوط فى درجة الدكتوراه ..

كتب إلى صديقه أندريه ، يقول :

- لقد لفظ القدر كلمته . إنه لا يريد لى طريق القانون ، لقد رسبت فى ثلاث درجات ، ولم ترد لجنة المخلفين جبر النقص ، بينما وافقت لجنة أخرى على جبر أربع درجات لاحد أعضاء البعثة .. من هذا ترى أن القدر لم يرد أن يمد يده كما يمدّها إلى غيرى ، لماذا ؟ إياك أن تفهم أنى تهاونت فى الدرس ، لقد كانت إيجابى مرضية جداً فى علم تاريخ المبادئ والمذاهب الاقتصادية ، من آراء أرسطو حتى كارل ماركس . وكذلك فى علم الاقتصاد السياسى ، وفى علم التشريع الصناعى ، ولم أهبط إلى حد الرسوب إلا فى علم واحد ، هو علم

« المالية » ولعل هذا يفسر لك ارتباطك مالىتي إنه علم إجراءات وأرقام لا تستقر في ذاكرتي .

آه للذاكرة يا أندريه .. مادامت الذاكرة هي المعول عليها إلى حد كبير في الامتحان فلا أمل لي . أما المطالعة في ذاتها فما أيسرها وما ألذها عندي . إنني أطلع في اليوم ، ما لا يقل عادة عن مائة صفحة في مختلف ألوان المعرفة ومن أدب وفنون وفلسفة وتاريخ إلى علوم رياضية وروحانية مائة صفحة في اليوم أي ثلاثة آلاف صفحة في الشهر . بينما المقرر كله لامتحان الدكتوراه لا يتجاوز ثلاثة آلاف صفحة في العام كله .. لو تعلم أني قرأت مقرر الدكتوراه للقانون ، وهو عن « سلطة الكنيسة والدولة » ونظام العبادات منذ القرن الرابع عشر وعصبة الأمم والمبادئ البارزة للقانون الدولي وأهم اتجاهات قضاء مجلس الدولة والدساتير المكتوبة ، قرأت ذلك كله دون أن أتقدم فيه إلى امتحان ، قرأته لمجرد القراءة ، وما قراءة مقرر عندي إلى جانب قراءاتي الأخرى ؟

ألم أخبرك أني تتبعت كثيرا من دروس السوربون ، بغير غاية ، إلا تتبع آثار الثقافة التي تعينني . إن التحصيل في ذاته للثقافة والتكوين هو لذتي الكبرى الآن . إنما الذي يخيفني هو الامتحان .

لقد تحقق لدى اليوم ، أني لا أصلح بطبيعتي للتقدم إلى أى امتحان ذلك أن الامتحان يريد لي عكس ما أريد من القراءة . إنني أقرأ لأهضم ما قرأت ، أبحث في الامتحان فإني أريد مني أن أحتفظ له بهذه المواد صلبة مغروزة ، إنني أشعر وأنا أقرأ حتى مقرر الدكتوراه في القانون ، أن مواده قد تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات أخرى ، لا علاقة لها بالقانون ، كما تختلط في المعدة المواد الغذائية

بعضها ببعض ، وإذا الناتج من هذه المواد عصير ثقافى ، يسرى فى دمي المعنوى ، فأحس كأن وزنى الفكرى قد ازداد ، وكأن قدرتى على احتمال التأمل المثمر قد نمت . أما المواد الغذائية فى ذاتها فقد هضمت ، أى نسيت . الامتحان يريد منى أن أوقف عملية الهضم ، حتى يتحقق الممتحن من وجود المواد الصلبة مغروزة داخل المعدة الدهنية .

وفوق هذا تدخل عامل التفاؤل والتشاؤم لدى طالب الدكتوراه الشرق فروى تلك الحادثة التى وقعت له ليلة الامتحان ، وقال :

- كان ذلك آخر ليلة استعد فيها للامتحان . لقد سهرت حتى الرابعة صباحاً ، نحت مصباح المكتب الصغير ، حتى أتممت مراجعتى الأخيرة . فطويت الأوراق والمكتب ، ونهضت للنوم ، كى استيقظ نشيطاً للامتحان . وكنت منشغلاً متفائلاً مفعماً بالأمل لامتلاكى ناصية المقرر ، وإذا فجأة تصطدم يدى بالمصباح فيقع مكسوراً على أرض الحجرة ، تاركاً كل شىء فى الظلام ..

عند ذلك دب التشاؤم فى نفسى ، وحدثت نفسى بسوء الختام فى هذه اللحظة فقط كان فشلى قد تقرر ، كما تقرر مصير « مكبث » ملكاً مجرماً فى اللحظة التى آمن فيها بنبوءة الساحرات .

سواء كانت تلك إرادة القدر أو إرادتى ، فقد فشلت يا « أندريه » فأرث

لى ! ؟

عاد بجنى حنين

أمضى تلك السنوات فى باريس .. ثم عاد دون الحصول على الدكتوراه فى

القانون على ظهر الباخرة «راوليندى» فى يوم ٢٥ مايو، ووصل إلى الاسكندرية بعد عشرة أيام فى يوم ٥ يونيه ١٩٢٨ .
ويصف ما حدث له بعد ذلك ، فيقول :

- وعدت إلى بلادى ، عدت بالحقية ذاتها التى قد حملتها معى ، وكان بها بدلتان وأربع فانيلات وأربعة قصان ، وستة مناديل .. عدت بها جميعا لم ينقص منها شيء . كما عدت بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت من كتب على مدى تلك الأعوام . كل ذلك عدت به ، ماعدا شيئا واحدا لم أعد به ، وهو مذهبتي للحصول عليه وهو «الدكتوراه فى القانون» فإن بطء الفهم عندى وواعيتى الضعيفة ، بالإضافة إلى أعباء الجهاد الثقافى الشامل الذى ألقىت بنفسى كلها فى لجته ، مع الفهم الفكرى الذى استولى على أمام موائد الحضارة الكبرى .. كل هذا لم يترك لمثل القوة ولا القدرة على حمل عبء آخر .
ويصور وقع ذلك على نفسه وعلى أسرته ، فيقول :

- عدت فاستقبلنى أهلى كما يستقبل الخائب الفاشل . وتصادف أن سمعوا أصوات فرح على مقربة من منزلنا . فلما سألوا عن الخبر . قيل إن سرادقا أقيم وأكواب شريات تقدم ابتهاجا بجمار زميل لى عاد من الخارج ناجحا فالحا ظافرا بشهادة الدكتوراه ، فازداد مركزى سوءا . ورأيت الهم والغم والأسى فى عيون أهلى . وسمعتهم من حولي يتهايمسون : يا خيبتنا .. يا خيبتنا .

دكتوراه فى الأدب

لكنه لم يمكث فى مصر سوى شهر واحد . ثم عاد إلى باريس بعد أن تلقى

برقية عاجلة بالعودة إلى هناك .

وقد أوضح في كتاب « وثائق من كواليس الأدباء » السبب في هذا الاستدعاء ، وهو أنه كان قد بدأ في كتابة رواية « عودة الروح » باللغة الفرنسية في العام السابق ، وعهد إلى صديق فرنسي بمشاركته في هذا العمل فتلقى تلك البرقية من صديق آخر من المشجعين له ، بالعودة لسحب روايته ، حتى لا يسطر عليها الصديق الفرنسي وينسبها إلى نفسه . كما حدث ذلك من قبل مع أحد زملاء الدكتور طه حسين في جامعة السوربون ، وهو أحمد ضيف الذي أراد أن يكتب رواية بالفرنسية بعنوان « منصور » بالاشتراك مع كاتب فرنسي اسمه « فرانسوا بونجان » فزعم أنه هو المؤلف الأصلي ، وأن أحمد ضيف ليس أكثر من معاون ثانوي أمده بالمعلومات . وهذا ما كاد يحدث للحكيم في رواية « عودة الروح » فعاد وسحب الرواية من الشريك الفرنسي ، وطرحها جانباً ، وكتب الرواية من جديد باللغة العربية التي نشرت بها بعد ذلك .

لكنه كان قد قرر أمراً بعد فشله في الحصول على الدكتوراه في القانون ، وذلك بأن صرح أباه بأنه يريد تغيير خط السير الذي أراده له ، وأن يترك القانون ويتخصص في الأدب .

لقد أرسله والده إلى باريس عام ١٩٢٥ تحقيقاً لاقتراح صديقه أحمد لطفى السيد ، مدير دار الكتب عامئذ ليحصل على الدكتوراه في القانون ، ويعين بعد عودته أستاذاً في الجامعة التي كان مزعماً لإنشاؤها بعد ذلك .

والآن أصبح لطفى السيد بك يشغل منصب وزير المعارف ، ويستطيع أن يحقق له حلماً من أحلام عمره . بتغيير اتجاهه إلى الأدب ، فكتب رسالة إلى والده يطلب فيها أن يقابل صديقه وزير المعارف ، لاستشارته في أمر ترشيحه

لبعثة أدبية تتخصص في التأليف الأدبي .

وقد تلقى رسالة من والده بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٢٨ ردًا على تلك الرسالة يخبره فيها بما تم بعد لقائه مع صديقه معالي لطفى السيد بك ، قال فيه - قابلت معاليه ، وأخبرته بما جاء في خطابك عن تعلقك بالنبوغ في الأدب وإفادة البلاد بالتأليف الأدبية ، وبأن الحكومة أو وزارة المعارف تقترح إيفاد مرشح لهذا الغرض . فكان جواب معاليه أن لجنة البعثات لا تبحث في مثل هذا الاقتراح مطلقًا ، لأن موضوعه عام غير محدود .. ولأن الأدب إنما هو ميل خاص في شخص ليستفيد منه هو نفسه لأنه هو يجده ، وليس من الفنون التي تدخل فيها الحكومة من وجهة تخصيص شخص أو أشخاص للتبحر والنبوغ ، لأنه لا يمكن لها معرفة حقيقة المواهب الأدبية لدى الأشخاص ، حتى ترسل منهم على نفقتها من يتخصص في الأدب .

وأضاف الوالد :

- والرأي الذي وافق عليه أخيرا هو توظيفك بالمحكمة المختلطة ، فإنها من جهة تضمن مستقبلك . ومن جهة أخرى تساعدك على الاستمرار في درس الأدب بما فيها من قلة العمل .

وقال إن بلادنا وإن كانت محتاجة حقيقة إلى الأدب والتأليف إلى حد بعيد ، لاتدرك هذه التضحية منك الآن وأنت في مستقبل الشباب على حين يمكنك إفادتها بمواهبك بدون أن تضحي بمستقبلك وتلق به في هوة سحيقة .

ثم طالبه بالتعجيل في العودة إلى مصر في أول شهر نوفمبر لتسلم الوظيفة قبل أن تغفل منه ، خصوصا إن لطفى السيد وبعض عليه القوم يذولون المساعي في سبيل ذلك .

التهديد بقطع المصروفات

وحق لا يتأخر في العودة ، أخبره بأنه لن يستطيع أن يمده بالمصروفات بعد ذلك .

وبرغم أن الوالد . قد لوح له بقطع المصروفات عنه . فإنه كان يريد البقاء في باريس بضعة شهور أخرى لإنجاز عمله الأدبي ، فكتب إليه ردًا بهذا المعنى قال فيه ، موجهاً الحديث إلى والديه .

- مهما كانت ثقتكما بي ، فلن أخشى أن المظاهر المادية في مصر تجعلكما تندمان على رفض المادة في سبيل غاية تسمونها « خيالية » إنى أطلب منكما أكثر مما تحتمله الطبيعة الأبوية . وأنخيلكما أقوى من الواقع . الواقع في أب وأم يجبان ولدهما . وكأني أريدكما أبطالا .. أبطال قصص قديرين على فصل العاطفة عن الواجب .

أما جميع أصدقائي المخلصين المطلعين على حقيقة أمرى وما فعلت ، فيعجبون بي كل الإعجاب ويحضونني على الاستمرار ، حتى أظفر بشيء وأعود إلى مصر فائزاً .

وبعضهم ماتردد أن قال : « إن أعوزتك النقود فأشتغل في باريس شغلة (ولو حقيرة) وأمض في سبيلك ، فلا بد وأصل بإذن الله » .

ومع ذلك فليس هذا يقلقني ، فدة إقامتي في باريس لإتمام عملي برغم المصاعب ، لن تطول أكثر من بضعة شهور ، إنما ما يشغل بالي هو وظيفة النيابة المختلطة ، وندم حضرتكما العميق المحتمل فيما لو أضععتها من يدي ،

ولهذا ضحى بهذا الهدف ، الذى كان سيجعله خليقا بأن ينال الدكتوراه فى الأدب بدلا من القانون ، وعجل بالعودة إلى الوطن فى أول نوفمبر ١٩٢٨ . كان يطلب العلم لذاته وليس فى سبيل الشهادة . يحدثنا بإعجاب عن معهد أقيم لهذا الغرض من أجل الاستزادة من المعرفة ، عندما هبط باريس لأول مرة وأقام فى فندق فرنسا الشرق فى الحى اللاتينى ، فيقول :

- أستلفت نظرى فى مواجهتى مبنى له مهابة ، فسألت الخادم عنه فقالت : إنه « الكوليج دى فرانس » ولم تزد . ولم أفهم منها المقصود ، فلبجأت إلى جامعتى المتقلة « معجم لاروس » وكشفت عن كلمة « كوليج » فعثرت على ضالتي فى هذه السطور : « كوليج دى فرانس » معهد أسسه فى باريس فرانسوا الأول عام ١٥٣٠ خارج نطاق الجامعة . بناء على مشورة جيوم بوديه ، والدراسة فى هذا المعهد تشغل كل مجالات المعرفة الإنسانية ، والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع ، ولا يعقد فيه أى امتحان ، فهى دراسة تكميلية تطلب لذاتها .

وجيوم بوديه فيلسوف فرنسى (١٤٦٧ - ١٥٤٠) واحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الإغريقية .

ولعل الحكيم أفاد من هذا المعهد ، فى سبيل الاستزادة من المعرفة فى ذاتها ، لأنه يحدثنا عنه ، فيقول :

- غرقت فى التفكير ، باللعجب بل بالرقى رقى النفس والعقل أن يطلب الإنسان المعرفة لذاتها ، للسمو بها ، لابغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة أو وصول إلى وظيفة .

° ° °